

سناب أبي منير البقشي (المؤلف الباحث الأستاذ أحمد بن الشيخ حسن البقشي)

عن دار الانتشار العربي صدر مؤخرًا كتاب بعنوان: شذرات من سيرة الوالد الحاج حسن بن علي البقشي (بومنير) مذكرات توثيقية عن الحياة والعمل والمجتمع، وذلك في 495 صفحة من القطع الكبير، من تأليف نجله الباحث في التراث الأحسائي الأستاذ أحمد البقشي.

يُعدّ هذا الكتاب مرجعًا مهمًّا لمن أراد أن يقرأ عن الأحساء وتحولاتها الاجتماعية والاقتصادية عن قرب، إذ يعرضها المؤلف من خلال سيرة والده الحاج حسن البقشي، شاهد العيان الذي عاصر مراحل التحول المفصلية في المنطقة، ووثّق تفاصيل الحياة اليومية بذاكرةٍ حاضرةٍ وتجربةٍ غنية.

وحيث إنني ممن قرأ الكتابَ قبل صدوره - صفحةً صفحةً، وسطرًا سطرًا وحرفًا حرفًا فقد تمخّصت هذه القراءةُ الفاحصة عن ثلاث وقفاتٍ قصار:

- وقفة مع الكتاب (شذرات من سيرة الوالد)

- وقفة مع صاحب المذكرات العم الشيخ حسن البقشي (أبو منير) رعاه الله.

- وقفة مع الكاتب الباحث الأستاذ أحمد البقشي

الوقفة الأولى: وقفة مع الكتاب:

لم يكن مخاضُ ولادةِ هذا الكتاب عسيرًا، برغم أن أشهر حمله بلغت 493 صفحة، فقد صاحبه دعوات الوالدين وطوّقه أمنيّات الأخوة والأصدقاء بالنعناع والحبك، حيث وُلِدَ في أحسن تقويم وأبهى حلة، مكتمل الخلقة والبيان، ومطرزًا بالهيله والقيطان.. وذلك من خلال خمس صور:

(1) إنه يتناول حقبةً من تاريخ الأحساء المهاجر في كاطمية العراق في حقبة الخمسينات والستينات الميلادية، وهذه الفترة حقيقة بالدراسة والتأمل مع أخواتها في سوريا والكويت والبحرين، بالنظر إلى ما يتمتع به الإنسان الأحسائي من صبرٍ وجَلَد في تسويق منتجه اليدوي والحرفي.

(2) إنه محفّز لكتابة المذكرات الشخصية الشفاهية بما لهذه المذكرات من ثقل وازن كمرجعية تاريخية حاکمة، فالمذكرات ينثرها صاحبها كشاهد عيان على الحدث المشهود بما يكسبه من مصداقية قياساً بالنص السردى المكتوب الذي لا يكون عادةً ساردٌ شاهدهٌ حياً عليه.

(3) إنه أشبه بالكشكول، أو الحديقة الغنّاء، فقد احتوى على الطرفة الجميلة، والفكرة اللافتة، والنصيحة الذكية، والمعلومة الناجزة، والمثل الأحسائي السائر ما يبعد السأم والملالة عند القارئ، وبما يشعل فتيله ليواصل قراءة المذكرات حتى النهاية، كحلقات رواية متسلسلة الأحداث، بطلها العم أبو منير.

(4) إنه يحتوي على مجموع كبير من السير الذاتية لأشخاصٍ راحلين ومعاصرين، ووجهاء وفاعلين في المجتمع قلّ أن تجدهم في مصادرٍ وقنواتٍ أخرى، حيث أفاض في التعريف بشخصياتٍ أحسائية وغير أحسائية كانت متزامنةً مع وجوده في كاطمية العراق، ما أكسب الكتاب متانةً وقوةً.

(5) اعتباره مرجعاً حياً ومصدرًا موثقاً لكثير من الوقائع والأحداث التي مرّت بها المنطقة خلال ثمانين عاماً، حيث يتسم بالصدق والواقعية والموضوعية في الطرح والسرد.

الوقفه الثانية: وقفة مع صاحب المذكرات:

العم أبو منير.. بطل الرواية - كما ذكرت سلفاً - كان متماهياً مع المكان والزمان في أي بلد يكون فيه ويتقلّب في رحمه، لم يكن منزوياً عن الناس والمجتمع، ولم يكن منطوياً على ذاته ويعيش عزلة الروح وغربة الجسد، ككثير من قرنائه، بل كانت أبوابه مُسرعةً، ونوافذُه مفتوحةً على مختلف طبقات المجتمع وشرائحه، كان لديه (من بد الناس) في غابر ذلك الزمن حساب (سناپ) يصوّر فيه يومياته ومشاهداته.. والآن هو يشاركنا تلك اليوميات من خلال هذا الكتاب، حيث كان يكتب ذكرياته بطيشور حجر الربي على جدار الزمن السحيق، ومن يقرأ الفهرس كمصافحة أوليّة للكتاب يدرك ما أقول وما أعيه وأشير إليه.

لهذا امتلك رصيداً شعبوياً كبيراً في النفوس التي ألفتها وساكنته وجاورته... وسيارته الـ (فولكس واجن) موديل 69 تحكي قصّة كفاحه ونفسه الكبيرة.. وبالتالي جاءت هذه المذكرات عبر ما يتمتع به العم أبو منير من خلال الآتي:

(1) الذاكرة الفولاذية في تذكّر الأسماء والتفاصيل والأحداث المفصلية في تاريخ العراق كما عاصرها في الفترة التي عاشها في الكاظمية وغير الكاظمية، وكذلك تدوينه الدقيق للمتغيّرات الحضرية والمجتمعية التي شهدتها الأحساء في تلك الحقبة من دخول الكهرباء والتلفزيون والسيارة ومصنع النسيج ومصنع الثلج وشركة أرامكو ومشروع حجز الرمال والري والصرف وعمارة السبيعي وما نتج عن ذلك من أثر على تخلخل الطبقات الاجتماعية وتغيّر المراكز بسبب طفرة العلم والمال.

(2) امتلاكه لعدسة بانورامية وعين نسر خاطفة، قادرة على تصوير المشهد بتقنية 4k، حيث يستطيع أن يدخل محدّثه وقارئه لداخل المشهد ليتفاعل لا إراديًّا مع مقتضياته، ودونك مشهد (السويح يحترق) عام 1377هـ وما نتج عنه من ضحايا، ومنهم الشاب علي بن علي البقشي الذي نظرت لصورته بالكتاب بألمٍ وحرقة وتحسّر، ولو كان بين طهرانينا الآن لكان عمره ثمانين عامًا تقريبًا، لكن الأمر من قبل ومن بعد.

الوقفه الثالثة: وقفة مع الكاتب أحمد:

عرفت الصديق أبا محمد مبكرًا جدًّا، وكان أحد أبطال (النيجاتيف) وأصدقاء معامل التحميص مع شقيقه المصور الأستاذ علي (أبورضا)، الفرق بينهما ليس شاسعًا بالقدر الذي يجعلك أن تقول عنهما أنهما مختلفان، أحمد تخصّص في الذاكرة السردية وعلي في الذاكرة الصورية.

أحمد وبعد أن انتهى من كتابه الضخم (من ذاكرة الأحساء) في أربعة أجزاء عام 2018م، لم ينفصل عن صلاة جعفر، بل ظل يمارس هوايته الفطرية في محراب الأحساء، وهي اقتناص اللحظة، فقد فتح الباب عليه بابًا من سماء الأحساء فظلّ فيه يعرج إلى حيث التميّز والفرادة والإبهار.

أحمد أحسبه في هذا الإصدار الجديد أنه كان غوّاصًا ماهرًا، فقد استطاع أن يغوص لأقصى عمق وأبعد نقطة في شخصية والده ليجلب لنا من اللآلئ والدرر ما نستعيص به عن الزينة والتجمّل.

كما أن هناك ملمحًا للمتبصّر في أمر الكتاب، وهو أن الأستاذ أحمد كان حاذقًا في رمي الشباك في بحر والده، بحيث يكون الحديث في مرمى شبابه، بما يتضمّن من مواضيع مختلفة لها ميسر مباشر بحياة والده، فقد طرق موضوع العادات والتقاليد في مجتمع الكاظمية والأحساء، وتناول المواضيع ذات الشأن الديني والاجتماعي.

إن استنطاق الشخصية -ومن واقع تجربة- أمرٌ عَسِرٌ جدًّا، ما لم تكن تملك أدواتك الخاصة القادرة على تفتيت الصخر وإسالة الجامد، وهذا ما وجدته شاخصًا في أخينا الأستاذ أحمد، كان فلاحًا ماهرًا، يعرف مواسم الخصب ومواقع النجوم، ويعرف متى يُضحك الماء ومتى يمسك، ويعرف كيف يؤكل الجذَبُ والتلتال.

لقد أفرغ عن لسان والده ذكرياتٍ وحكايات، كتبها بأسلوبٍ فخم تتجلى فيه عرامةُ اللغة، وجزالةُ المعنى، وقيمومة الحدث، ولعمري أنَّ هذا الأسلوب السلس هو ما أراهن عليه عند كل قارئ في أن يكون هذا الكتاب صديقه ونديمه من الصفحات الأولى وحتى آخر صفحة.

نقطة أخرى أرى أنها لافتة في أحمد كباحثٍ متمرّس ومحترف، وهي خارطته الذهنيّة التي وضعها لهيكليّة الكتاب، متمرّدًا مع والده في مراحل زمنيّة متسلسلة، ابتداءً من الأحساء حيث مولدُه ونشأَتُه، إلى الكاظمية وما تخلّلها من زيارات لمختلف مدن العراق الأخرى، إلى دول الخليج كالكويت والبحرين، وانتهاءً بعودته إلى مسقط رأسه الأحساء بما واكبها من أحداث اجتماعيّة، سرد كل ذلك بقدرة فائقة وحبكة فائنة دون أن يضطرب الكلام، أو ينفلت الخيطُ عن الإبرة.

ختامًا.. لا أنسى أن أخبركم أنه في ذات صرام وتحديدًا في نخل (الشراع) سمعت بلبًا حساويًّا جميعًا وهو يتقافز من نخلةٍ إلى نخلة، حيث توقّف الهواء عن الهب، وسعف النخيل عن الرفّ، قرّبت أذني وأصغيتُ له، وإذا به يقول مبتهجًا وواثقًا:

تَطاولتَ كالنخلِ المُحلّقِ يَـا بـقـشـيْ

وَأنتَ تَـرومُ المجدَ سعيًا إلى العرشِ

مَشـيـتَ تـبـزُّ الـريـحَ سـبـقًا ووئـبـةً

فـلـم تـُـخـطئِ الأقدامُ دَريـكَـكَ إذْ تـمـشـي

تـهـشُّ عـلـى الأَحـسـاء فَـتـهـتـزُّ سـدـرةً

فَيَسَّاقُطُ التَّارِيخُ مِنْ ذَلِكَ الْهَشِّ

وَيَنْسَابُ فِي الْأَرْوَاحِ نَهْرُ (سَلَيْسِ)

وَقَدْ صَانَ سِرَّ النَّبْعِ صَوْنًا وَلَمْ يُفْشِ

وَتَنْدَلِقُ الدُّنْيَا أَنْبَهَارًا وَدَهْشَةً

لَعَيْنِ الْخُدُودِ الْيَوْمَ مِنْ فِتْنَةِ الرَّمْشِ

وَنَنُمُوا ابْتِهَالًا وَنَعْرِجُ دَعْوَةً

لِنَجْعَلَ هَذَا اللَّطْفَ أَحْسَاءَنَا يَغْشِي

فَإَمِنْ عَرَقِ الْأَجْدَادِ يَهْمِي جَبِينُنَا

شَمُودًا أَثِيرِيًّا مِنْ الْبَأْسِ وَالْجَأْشِ

نَمُوتُ إِذَا مَاتَتْ عَلَى الْمَاءِ نَخْلَةٌ

وَنَحْيَا بِ(مَخْشَيْنِ الْمَكْدَّةِ) وَالْعَيْشِ

أَيَّاهُ (أَحْمَدُ الْبِقْشِيُّ) يَا مَـنْ تَخَضُّبَتْ

يَدَاهُ مِنَ التَّوْتِ الْحَسَاوِيِّ كَالنَّعْشِ

تَنَافَحُ عَنِ أَحْسَائِكَ الْحُجُبِ مِثْلَمَا

يُنَافِجُ عَصْفُورٌ عَنْ الْغَصْنِ وَالْعُشِّ

تُجِيدُ التَّقَاطُ الضَّوءِ مِنْ كُلِّ سَكَّةٍ

=وَتَفْرِشُ أَنْحَاها الْوَتِيرَ مِنَ الْفَرَشِ

وَتَحْرِثُ أَرْضَ الذَّكْرِيَّاتِ بِمَقْوَلٍ

فَتَسْتَخْرِجُ الْمَخْبُوءَ فِي الْمَدْرِ بِالنَّبِشِ

وَتَهْمُرُ حَبَرَ الْأَمْسِ غَيْثًا لِبَاحَثٍ

لِيَنْعَمَ مِنْ كَفِّ الْعَطِيَّاتِ بِالرَّشِّ فَيَزْدَهْرُ الزَّرْعُ الَّذِي قَدْ حَرَسَتْهُ

فَتَتَّكِلُ الْحَصَى وَالصَّخْرَ قَدَمًا وَلَمْ تَخَفْ

سَنِينًا مِنَ الْأَشْوَائِ بِالْقَصِّ وَالْحَشِّ

فَكُلُّ الَّذِي تَنْوِي يُشِيرُ إِلَى السَّيِّئِ مَا

كَمَا خَافَتِ الْمِرْآةُ مِنْ آفَةِ الْخَدِّشِ

